سورة غافر

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ حمٓ ۝ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ۝ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ ذِى ٱلطَّوْلِ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ۝ ﴾

غَافِرِ الذَّنبِ : ساتر الذنب للمؤمنين .

وَقَابِلِ التَّوْبِ : التوبة من الذنب من كل مذنب .

ذِي الطَّوْلِ: الغنى أو الإنعام والتفضل أو المن .

استُعملت كلمتا ﴿ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴾ هنا استدلالاً على حقيقة القرآن الكريم ، ولئن كان ذلك إبان نزول القرآن ضرباً من التنبؤ ، فإنه قد أصبح الآن واقعةً ثابتةً لا جدال فيها .

فقد نزل القرآن قبل عصر العلم في ظروف غير مواتية للغاية ، ولكنه لم يلبث أن أحرز الانتصار والغلبة على جميع معارضيه حسب دعواه ، ففي فترةٍ وجيزةٍ من الزمان جداً استطاع أن يقهر كل مَنْ تصدى له وناصبه العداء من المشركين العرب ، إلى يهود الجزيرة ، إلى الإمبراطوريتين العظيمتين: الفارسية والرومانية ... إلخ ، وهذا واقع لا يوجد له مثيل في التاريخ البشري بأكمله ، وهو برهان ناطق بأن هذا القرآن منزل من عند الله العزيز الغالب الذي يَقْهَر ولا يُقهر .

والميزة الثانية للقرآن هي أنه كتاب صحيح من ألفه إلى يائه ، فحتى بعد مرور ما يقرب من خمسة عشر قرناً لم يكن العثور على شيءٍ من محتوياته ينافي أو يتعارض مع

الحقيقة الواقعة ؛ مما يبرهن بما لا يدع مجالاً للشك على أن منزّله إله عليم وخبير ، لا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء ، وأنه يحيط علماً بالماضي والحاضر والمستقبل على حدٍ سواء ، وأن هذا الإله هو المعبود الحقيقي للإنسان ، ومن مقتضى قدرته وعلمه أن يجمع يوماً جميع البشر على صعيدٍ واحدٍ ، ويحاسبهم على أعمالهم ، ثم يحكم على الكل حكمه العادل ، بأن يعفو عن الذين رجعوا إليه تعالى وأنابوا ، ويعاقب الطغاة والمتجبرين على عصيانهم وسوء أعمالهم!!

﴿ مَا يُجَٰدِلُ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِى ٱلْبِلَٰدِ ۝ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۖ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍۭ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ ۖ وَجَٰدَلُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ۝ وَكَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۝ ﴾

يَغْرُرْكَ : فلا يخدعنك .

تَقَلُّبُهُمْ : تنقلهم سالمين غانمين فإنه استدراج .

لِيُدْحِضُوا بِهِ الحَقَّ : ليبطلوا ويزيلوا بالباطل الحق .

حَقَّتْ : وجبت وثبتت بالإهلاك .

المراد بـ ﴿ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ﴾ هنا تلك الأدلة التي تقدّم إثباتاً لدعوة الحق ، والذين ليسوا بجادين في أمر الله ، طالما يثيرون مناقشاتٍ فارغةً إيهاماً للجماهير وتمويهاً عليها بأن هذه الدعوة ليست بدعوة الحق ، إنما هي فكرة مبتكرة نبتت في مخيلة أحد الناس الداعي!!

إن مجادلة باطلة كهذه جريمة جد عظيمة ، بيد أن المهلة لا تزال متاحة لأصحابها إلى مدة معينةٍ في عالم الامتحان الراهن ، وينتظرهم ، عقب انقضائها ، المصير المشئوم نفسه

الذي لقيه من قبل قوم نوح ، وعاد وثمود، وغيرهم ، حيث إن الذين ظنوا أنفسهم كباراً لم يلبثوا أن صاروا صغاراً ، وأما الذين كانوا قد اعتبروا صغاراً ، فقد أدخلوا عند الله في عداد الكبار!

﴿ ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٨﴾ وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُۥ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٩﴾ ﴾

سَبِيلَكَ : طريق الهدى (دين الإسلام) .

وَقِهِمْ عَذَابَ الجَحِيمِ : احفظهم منه .

وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ : المعاصي أو عقوبتها .

إن عباد الله الذين يقومون بدعوة الحق ، يتعرضون دوْماً لألوان الأذى والعنت والاضطهاد ، ويُتخذ منهم موضوع السخرية والتحقير والامتهان في مجتمعهم ، ولكن في الوقت الذي يسوء حالهم بين عبدة الظواهر من الناس إلى هذا الحد ، في الوقت نفسه تكون السموات والأرض ناطقة بكونهم على الحق ، ويكون الملائكة الموكلون بتدبير شئون الكون منتظرين لحسن مآلهم وجميل عاقبتهم التي يصيرون إليها في نهاية المطاف ، فالذين قُوبلوا بمنتهى الإهانة ولم يعتبروا أهلاً حتى للذكر في هذا العالم الفاني، ويتبوءون في ذلك العالم الأبدي مقام العز والكرامة بحيث لا تفتأ ألسنة أقرب المقربين من ملائكة الله تلهج بالدعاء والاستغفار في حقهم!!

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى ٱلْإِيمَٰنِ فَتَكْفُرُونَ ﴿١٠﴾ قَالُواْ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ فَٱعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ ﴿١١﴾ ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِىَ ٱللَّهُ وَحْدَهُۥ كَفَرْتُمْ ۖ وَإِن يُشْرَكْ بِهِۦ تُؤْمِنُواْ ۚ فَٱلْحُكْمُ لِلَّهِ ٱلْعَلِىِّ ٱلْكَبِيرِ ﴿١٢﴾ ﴾

لَمَقْتُ الله : لبغضه الشديد وغضبه عليكم .

تُؤْمِنُوا : تذعنوا وتقروا بالشرك .

لقد بعث الله - سبحانه وتعالى - ورحمته إلى عالمنا الراهن في ثوب الهداية ، ولكن الناس لم يتلقوها بالقبول ، وستكون عاقبة هذا الرفض في الآخرة أن يحرم أصحابه من الرحمة الإلهية حرماناً مؤبداً ؛ فإنهم لما كانوا قد أعرضوا عن رحمة الله المهداة في الدنيا ، فسوف تعرض عنهم رحمة الله في الآخرة جزاءً وفاقاً .

وعندها سيقول هؤلاء المنكرون الجاحدون : يا ربنا ! لقد خلقتنا من تراب ، فكأننا كنا أمواتاً ، فنفخت فينا الحياة ، ثم تعرضنا للموت مرةً أخرى عندما انقضت أعمارنا المحددة، وها نحن قد بُعثنا من جديدٍ في عالم الآخرة ، وهكذا فقد أمتّنا - يارب - مرتين وأحييتنا مرتين . ولئن أتحت لنا الآن فرصةً ثالثةً ، فتردنا إلى الدنيا ، كي نعيش فيها عمراً آخر ، ثم نحضر إليك بعد الموت ، فإننا سنعترف هناك بصدقك ، ونمارس حياةً صالحةً تقيةً !

غير أن طلبهم هذا لن يلقى الإجابة أو القبول ، ذلك لكونهم قد أثبتوا عن أنفسهم أنهم لا يستطيعون إدراك الصدق ؛ مادام الصدق مستتراً وراء الغيب ، وإنما هم يستطيعون أن يتعرفوا على الآلهة "الظاهرة المنظورة" ، ولا يقدرون على معرفة الإله الغيبي ، وإنه لا قيمة لعبدة الظواهر كهؤلاء عند الله سبحانه وتعالى .

﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزْقًا ۚ وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ فَٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿١٤﴾ رَفِيعُ ٱلدَّرَجَـٰتِ ذُو ٱلْعَرْشِ يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ ﴿١٥﴾ يَوْمَ هُم بَـٰرِزُونَ ۖ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌ ۚ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿١٦﴾ ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ۚ لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٧﴾ ﴾

يُنِيبُ : يرجع إلى التفكير في الآيات .

رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ : رافع السماوات بعضها فوق بعض .

يُلْقِي الرُّوحَ : ينزل الوحي أو القرآن أو جبريل .

يَوْمَ التَّلَاقِ : يوم الاجتماع في المحشر .

هُم بَارِزُونَ: خارجون من القبور ظاهرون لا يسترهم شيء .

يزخر الكون بآياتٍ لا تُحصى ؛ تعلمنا درس الحقيقة بلغة التمثيل ، ومن هذه الآيات نظام المطر ، فهذا الحدث المادي يمثل أمر الوحي المعنوي ، فكما أن المطر نافع للأراضي الخصبة ، وغير نافع للأراضي البور ، فكذلك الوحي - وهو مطر الله المعنوي - إذْ يدخل في أعماق الذين جعلوا صدورهم مفتوحةً ، يملأ وجودهم خصوبةً ونضارةً ، وعلى نقيض من ذلك فإن الذين مُلئت صدورهم بالأمجاد غير الإلهية ، شأنهم شأن الأراضي البور ، لن يزالوا محرومين من فوائد الوحي الإلهي .

إن الله سبحانه خبير بعباده على أتم وجهٍ وأكمله ، وإنه تعالى يختار من بينهم مَنْ يجده

أهلاً لتبليغ رسالته ، وهذه الرسالة تهدف - أساساً - إلى إنذار الناس باليوم الذي يُحضرون فيه بين يدي مالك الكون ذي العزة والجلال الذي لا يخفى عليه شيء من أحوال الناس ، وليس ثمة أحد من شأنه أن يؤثر أو يتدخل في قضائه يومئذ!!

﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْآزِفَةِ إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَ ۚ مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴿١٨﴾ يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ﴿١٩﴾ وَٱللَّهُ يَقْضِى بِٱلْحَقِّ ۖ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَقْضُونَ بِشَىْءٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿٢٠﴾ ﴾

يَوْمَ الآزِفَةِ : يوم القيامة لقربها .

الحَنَاجِرِ : التراقي والحلاقيم .

كَاظِمِينَ : ممسكين على الغم الممتلئين منه .

حَمِيمٍ : قريب مشفق يهتم بهم .

خَائِنَةَ الأَعْيُنِ : النظرة الخائنة إلى ما لا يحل .

يتمتع الإنسان بكل أنواع الفرص والإمكانات في العالم الراهن ، فهو حر ليفعل ما يشاء ؛ مما يوقع المرء في سوء الفهم والتقدير ، حيث إنه ينظر إلى حالته المؤقتة الراهنة هذه على أنها حالته الدائمة ، في حين أن هذه الفرص والإمكانات التي أتيحت للإنسان إنما هي على وجه الامتحان وليس على وجه الاستحقاق ،فحين تنقضي مدة الامتحان تُنتزع منه كل الفرص والإمكانات المتاحة حالياً ، وعندها سيدرك الإنسان أنه لا يتوافر لديه غير العجز شيء يستند عليه !

ويميل المرء إلى أن يعيش حياة حرةً طليقةً من كل القيود ، وبسبب هذا المزاج ذاته يتخذ المرء لله أنداداً وشركاء في ألوهيته ، لكي يستغل أسماءهم لإضفاء صبغة الشرعية

على ضلاله وانحرافه ، ولكن عندما تتجلى الحقيقة سافرةً عاريةً في يوم القيامة ، فسيعلم المرء حينئذٍ أنه لم يكن هناك غير الله أحد يتمتع بأي نوعٍ من القدرة أو الاجتهاد في الأرض ولا في السماء !!

﴿ ۞ أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوا۟ هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٢١﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ فَكَفَرُوا۟ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ ۖ إِنَّهُۥ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢٢﴾ ﴾

وَاقٍ : دافع يدفع عنهم العذاب .

إن تاريخ العالم غني بأمثلة كثيرة تدلنا على أن أمةً ازدهرت ثم اندثرت ، وأخرى شيدت صرح مدنية رائعة على وجه الأرض ، وإذا بآثار مدنيتها لا توجد اليوم إلا في صورة أطلال مدفونة تحت الأرض ، وأمة ثالثة كانت في يومٍ من الأيام واقعةً حيةً ملموسةً في دنيا الناس ، ولكنها لم تعد تُذكر الآن إلا كواقعة تاريخية مضت!

ومثل هذه الوقائع ، وإن كانت وقائع معلومة عند الناس ، إلا أنهم أدرجوها تحت عنوان الحوادث الأرضية أو الانقلابات السياسية ، أما حقيقة الأمر فهي أنها كانت أحكاماً إلهية نفذت على تلك الأمم نتيجة إنكارها للحق ، ولو أتيح لنا بصر نتمكن به من رؤية الحقائق المعنوية لوجدنا أن كل واقعةٍ من تلك الوقائع كان يتم إحداثها بواسطة ملائكة الله ، وإن بدت للناظرين ، كأنها تحدث تحت العوامل والأسباب الدنيوية !

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَا وَسُلْطَـٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَـٰمَـٰنَ وَقَـٰرُونَ فَقَالُوا۟ سَـٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٢٤﴾ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا۟ ٱقْتُلُوٓا۟ أَبْنَآءَ

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ وَٱسۡتَحۡيُواْ نِسَآءَهُمۡۚ وَمَا كَيۡدُ ٱلۡكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ ٢٥﴾

وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ : استبقوا بناتهم للخدمة .

ضَلالٍ : ضياع وبطلان ووبال .

يُؤيِّد الأنبياء - إلى جانب الحجج والبراهين العامة - بمعجزات وخوارق تدل بما لا يدع مجالاً للشك على كونهم مرسلين من عند الله ، ولكن الإيمان بالحق يتم دوْماً في مقابل نفي الذات وعلى حساب كبريائها ، وهو أصعب تضحيةٍ على نفس إنسانٍ بلا ريب. وهذا هو السبب في أن فرعون وملأه لم يقروا بنبوة موسى - عليه السلام - رغم إتيانه بدلائل واضحةٍ غاية الوضوح!

وبدلاً من ذلك راحوا يوهمون الناس بأن ادعاء موسى النبوة لا حقيقة له ، وأن معجزاته لا تخرج عن كونها سحراً ، وصمّموا على تنفيذ سياستهم القمعية السابقة لتقليل تعداد بني إسرائيل بمزيدٍ من الشدة والاهتمام ، حتى لا يتمكن موسى من إقامة أرضية صلبةٍ يقف عليها بين أبناء قومه ، ولكنهم لم يكونوا يدرون أن تدابيرهم تلك لا يتخذونها إزاء موسى ، وإنما بإزاء الله عز وجل ، وأن أي مكيدة تُحاك إزاء الله تبوء دوماً بالفشل الذريع!

﴿وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ ذَرُونِيٓ أَقۡتُلۡ مُوسَىٰ وَلۡيَدۡعُ رَبَّهُۥٓۖ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمۡ أَوۡ أَن يُظۡهِرَ فِي ٱلۡأَرۡضِ ٱلۡفَسَادَ ٢٦ وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّي عُذۡتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٖ لَّا يُؤۡمِنُ بِيَوۡمِ ٱلۡحِسَابِ ٢٧﴾

عُذْتُ بِرَبِّي : اعتصمت وتحصنت به تعالى .

وقوله : ﴿أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ﴾ يعني أن يقضي على ما أنتم عليه من طريقتكم

الدينية، والتي ما زلتم تتوارثونها خلفاً عن سلفٍ ، وبالتالي يروج بينكم دين جديد لم تألفوه، ولذلك نسمع من حينٍ إلى حينٍ أن المتطرفين الهنادك في الهند يطالبون بفرض الحظر على حرية الدعاية الدينية قانونياً ، بحجة أنه إذا لم يتم ذلك فسوف لا يلبث أن يغير أهل الأديان الأخرى بدعايتهم دين البلاد الرسمي!!

والمراد بالفساد هو البلبلة والاضطراب ، أي إن موسى سوف لا يلبث أن يجد من بني شعبه أنصاراً وأعواناً ، فيسعى معهم إلى إثارة الفوضى والقلاقل في طول البلاد وعرضها ، ولذا يجب أن نقتله قبل أن يستفحل أمره !

وإن أكبر عائق يحول دون إيمان المرء بالحق هو نفسيته المفعمة بالتكبر والصلف والغرور ، فإنه لكيما يحتفظ برأسه عالياً مرفوعاً يحاول أن ينكس راية الحق ، ولكن الحق نصيره هو الله ب العالمين ، ولئن تمكن معارضوه - بادئ ذي بدءٍ - من كسب جولةٍ أو جولات في صراعهم مع الحق ، فإن نصر الله كفيل؛ لأن النجاح الأخير سيكتب للحق على أية حالٍ!!

﴿ وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَـٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ مِن رَّبِّكُمْ ۖ وَإِن يَكُ كَـٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ ۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴿٢٨﴾ يَـٰقَوْمِ لَكُمُ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ظَـٰهِرِينَ فِى ٱلْأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأْسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا ۚ قَالَ فِرْعَوْنُ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٢٩﴾ ﴾

ظَاهِرِينَ : غالبين عالين .

بَأْسِ اللهِ : عذابه ونقمته .

مَا أُرِيكُمْ : ما أشير عليكم .

إن الرجل المؤمن الذي ورد ذكره هنا كان ينتمي إلى أسرة فرعون الملكية ، ولعله كان من ذوي المناصب العليا في البلاط الفرعوني،وقد تأثر بما جاء به موسى – عليه السلام – من دعوة التوحيد،فآمن بها سراً ، وما زال يكتم إيمانه،ولكنه لم يكد يرى فرعون وملأه يأتمرون بموسى لقتله،حتى انبرى لحماية موسى مما يُكاد له علناً وجهاراً ، وقد دافع عن موسى – عليه السلام – بأسلوب قوي مؤثر وحكيم للغاية .

ومن العبر التي ينطوي عليها هذا الحادث : أن التبليغ قوة تخلق لنفسها أنصاراً ومؤيدين ، حتى في صفوف الأعداء ، ولو كان العدو أسرة ظالمة متكبرة كآل فرعون!!

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ ﴿٣٠﴾ مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ ﴿٣١﴾ وَيَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ ﴿٣٢﴾ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾ ﴾

الأَحْزَابِ : الأمم الماضية المتحزبة على الأنبياء .

دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ : عادتهم في الإقامة على التكذيب .

يَوْمَ التَّنَادِ : يوم القيامة (للنداء فيه للمحشر) .

عَاصِمٍ : مانع ودافع .

كان فرعون قد حذر موسى من عقاب الدنيا ، ورداً على ذلك فقد حذر الرجل المؤمن فرعون من عقاب الآخرة ، وذلك هو منهج الداعي إلى الحق دائماً ، ففيما يهتم الناس بشئون الدنيا ، يهتم الداعي بشئون الآخرة ، وفيما يتحدث الناس بمصطلحات الدنيا ، يصوغ الداعي كلامه في مصطلحات الآخرة ، وفيما يعتبر الناس قضايا الدنيا

أحق بالذكر ، تكون أولى القضايا بالذكر وأجدرها بالعناية في نظر الداعي هي التي تتصل بالآخرة !!

﴿ وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ ۖ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴿٣٥﴾ ﴾

مُرْتَابٌ : في دين الله شاك في وحدانيته .

بِغَيْرِ سُلْطَانٍ : بغير برهان وحجة .

كَبُرَ مَقْتاً : عظم جدالهم بغير حجة بغضا .

رفض أغلب المصريين التسليم بنبوة يوسف ما دام حياً بين أظهرهم ، ولكن لما بدأ الفساد يتسرب على أثر وفاته إلى أجهزة الحكم في البلاد ، أحس المصريون عندئذ بمدى عظمته – عليه السلام – فإذا بهم يقولون : إن وجود يوسف كان مصدر اليمن والبركة لمصر، وأنى سيأتي الآن رسول مثله ، وإن يوسف – رغم كونه نبياً مرسلاً من عند الله – كان بشراً ، وعليه فقد كان المجال مفتوحاً أمام أعين الناس ليتساءلوا قائلين : هل من الضروري أن يكون يوسف نبياً حتى يصدر عنه ما صدر من العجائب والكمالات ، إذْ من المحتمل أيضاً أن يكون هو إنساناً ذكياً ، أتى بهذه العجائب والكمالات بناءً على ذكائه الخارق ! ولقد كانت مثل هذه الأقاويل والمزاعم السخيفة هي التي جعلت المصريين يقعون ضحايا الشك والارتياب في نبوته – عليه السلام –

ومهما يكن الحق واضحاً ، فإنه لا يزال بإمكان المرء دوْماً في عالم الامتحان الراهن أن ينكره بإثارة أية شبهة مفتعلة حوله ، والذين تنطوي نفوسهم على مزاج التمرد

والاستكبار ، والذين يحسبون أنهم سيفقدون كبرياءهم فيما لو آمنوا بالحق ، يظلون ، بحكم طبيعتهم ومزاجهم متورطين في هذه الشبهات ، وهم يتناولون هذه الشبهات بالتفخيم لدرجة أنها تستولي على قلوبهم وعقولهم ، وتكون النتيجة أنهم لا يكادون يستطيعون التفكير في أمر الحق على نحوٍ مستقيم ، وبالتالي فإنهم لا يزالون مصرين على إنكاره حتى تنتهي آجالهم !

﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا ۚ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۚ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِى تَبَابٍ ﴿٣٧﴾ ﴾

صَرْحاً : قصراً أو بناء عالياً ظاهراً .

أَبْلُغُ الأَسْبَابَ : الأبواب أو الطرق .

تَبَابٍ : خسران وهلاك .

إن القول الذي وجهه فرعون إلى وزيره هامان لم يكن قولاً صادراً عن جد ، وإنما كان كيداً ، أي تدبيراً وقتياً محضاً ، حيث إنه لما رأى الملأ من حوله يتأثرون بخطاب الرجل المؤمن البليغ المدعم بأدلةٍ منطقيةٍ لا تقاوم ، أراد أن يلقي " فتيشةً " – على حد تعبير أهل الشام – تصرف اهتمام الحاضرين ، وبالتالي تتحول دعوة موسى إلى موضوع التهكم والسخرية بدل أن تصير موضوع التأمل والدراسة الجادة .

و" صيرورة سوء العمل مزيناً " هي أن يرفض المرء أمر الحق بترديد بعض الألفاظ البراقة ، وذلك هو منشأ ضلال المرء الحقيقي ، أي إعطاء الأهمية للمطاعن والاعتراضات المفتعلة بدلاً من الأدلة الجوهرية ، ومحاولة الستر على انحراف سافرٍ صريحٍ بغلاف من التبريرات الكاذبة ... إلخ ، وأمثال هؤلاء يغيب عن بالهم أن الحق

يكون قائماً على أساس دليلٍ محكمٍ لا يمكن التغلب عليه بافتعال المطاعن الباطلة !

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٣٨﴾ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ وَإِنَّ ٱلْءَاخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ ﴿٣٩﴾ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٤٠﴾ ۞ وَيَٰقَوْمِ مَا لِىٓ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدْعُونَنِىٓ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٤١﴾ تَدْعُونَنِى لِأَكْفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِۦ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ وَأَنَا۠ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلْغَفَّٰرِ ﴿٤٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَلَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴿٤٣﴾ فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ ۚ وَأُفَوِّضُ أَمْرِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٤٤﴾ ﴾

بِغَيْرِ حِسَابٍ : بلا نهاية من الرازق لما يعطي .

لاَ جَرَمَ : حق وثبت أو لا محالة أو حقاً

لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ : مستجابة . أو استجابة دعوة .

مَرَدَّنَا إِلَى اللهِ : رجوعنا بعد الموت إليه تعالى للجزاء.

إن خطاب الرجل المؤمن من آل فرعون هذا واضح غاية الوضوح ، وهو - إلى جانب ذلك – خطاب نموذجي يدلنا كيف ينبغي أن يكون خطاب الدعاة إلى الحق ، وما المحور الرئيسي لدعوة الحق ؟

﴿ وَأَنَا۠ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلْغَفَّٰرِ ﴿٤٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُۥ

دَعْوَةٌ فِي ٱلدُّنْيَا وَلَا فِي ٱلْآخِرَةِ ﴾ ... الآيات . هذه الجملة تمثل خلاصة خطاب الرجل المؤمن ، فمن خلالها يتضح لنا بجلاء ما هو الشيء الذي كان محل الجدل والنقاش في البلاط الفرعوني آنذاك ، وقد كان ذلك يتمثل في السؤال الآتي : إلى من نتوجه بالدعاء ؟ إلى الله الواحد الأحد ، أم إلى هذه الأصنام التي صنعها الإنسان بيده؟

فقال الرجل المؤمن لمن حوله : إن الله حقيقة حية قاهرة غلابة . ودعاؤنا إياه دعاء لإله حقيقي ، وأما أصنامكم هذه فإنما هي من اختراع أوهامكم ، وإنها لن تنفعكم شيئا في الدنيا ولا في الآخرة ، فإذا لم يكن لها وجود في حقيقة الأمر ، فكيف يمكن أن يرجى منها أية فوائد حقيقية ؟! وقد نقل ابن كثير في تفسير هذه الآية عن قتادة قوله : " يعني الوثن لا ينفع ولا يضر "[1].

﴿ فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٥﴾ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۚ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٦﴾ ﴾

وَحَاقَ : أحاط وأنزل .

غُدُواً وَعَشِياً : صباحاً ومساءً أو دائماً في البرزخ .

إن الرجل المؤمن من رجال البلاط الفرعوني لم يكن نبياً ، ولكن بالرغم من كونه وحيداً ، أنقذه الله من مكر فرعون ونواياه العدوانية الجائرة ، ومن هذا نعلم أن غير الأنبياء ينالون حماية الحق – من النصر والتأييد الخصوصي – مثل ما وعُد به الأنبياء والمرسلون.

---

(١) انظر مختصر تفسير ابن كثير ٣ / ٢٤٥.

وإن مصاير العباد الأخروية ، وإن كان سيتم تحديدها بصورة حتمية يوم القيامة ، إلا أن المرء لا يكاد يدخل بعد الموت أبواب العالم الآخر حتى يدرك من فوره ماذا جناه في حياته السابقة ، وأي مصير ينتظره هنا الآن، وهكذا فإنه يتعرض على مستوى الشعور ، عقب الموت مباشر لمصيره المحتوم الذي سيواجهه على المستوى الجسدي يوم القيامة، بعد أن تقام المحكمة الإلهية الأخيرة !

﴿ وَإِذْ يَتَحَآجُّونَ فِي ٱلنَّارِ فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَٰٓؤُا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ ٱلنَّارِ ﴿٤٧﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ ﴿٤٨﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِي ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٩﴾ قَالُوٓا۟ أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۚ قَالُوا۟ فَٱدْعُوا۟ ۗ وَمَا دُعَٰٓؤُا۟ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ ﴿٥٠﴾ ﴾

مُّغْنُونَ عَنَّا : دافعون، أو حاملون عنا .

تعرض هذه الآيات مشهداً من مشاهد جهنم ، وهو مشهد تتقابل فيه صورتان : صورة الرؤساء الذين عاشوا في الدنيا مستكبرين ومتعالين ، وها هم أولاء ينسون يومئذ علوهم واستكبارهم بالمرة ، تقابلها صورة العوام الذين كانوا يعتزون هنا بكبريائهم هؤلاء ، فإذا بهم يبدون هناك مشاعر التبرم والاستياء نحوهم .

إن الذي لم يكونوا يستعدون للخضوع أمام الحق في الدنيا سوف لا يلبثون أن يخضعوا للحق هناك في تواضع وخضوع ، غير أن خضوع الآخرة لن يغني عن أحد فتيلاً!

﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ﴿٥١﴾

يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ ۖ وَلَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٥٢﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْهُدَىٰ وَأَوْرَثْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ ﴿٥٣﴾ هُدًى وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٥٤﴾ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ ﴿٥٥﴾

يَقُومُ الأَشْهَادُ : الملائكة والرسل والمؤمنون .

مَعْذِرَتُهُمْ : عذرهم أو اعتذارهم حين يعتذرون .

بِالْعَشِيِّ وَالإِبْكَارِ : طرفي النهار أو دائماً .

إن للأنبياء وأتباعهم وعداً حتمياً أكيداً بنصر من الله لا يتخلف ، ولكن الاستحقاق لهذا النصر يتأتى دوماً بعد الصبر ، وما كان الصبر من الأهمية بهذا المكان إلا لكي يتميز أهل الحق من الظالمين بتمام الوضوح والجلاء ، ولأجل الإتيان بهذه المرحلة المميزة (الفاصلة) يضطر أهل الحق إلى أن يصبروا من طرف واحد ، وصبر أهل الحق هذا يؤهلهم في الدنيا لنصر الله ، كما يثبت بهذا الصبر جدارتهم بأن يقاموا شهداء لله على الظالمين يوم القيامة.

وإن الكتاب الذي يبعث من عند الله إنما يبعث للهداية والتذكير ليس غير، بيد أن هذا التذكير لا ينفع إلا ذوي الألباب والعقول،أي الذين ليسوا مكبلين بقيود المصالح،ويستطيعون التأمل في مضامينه متحررين من كل العقد النفسية،والذين يختبرون ما يُقال لهم بقياس الدليل وحده،وليس بأي مقياس آخر عداه ، وهذا هو الموقف العاقل من الهداية الإلهية،والذين يتخذون إزاء الهداية موقفاً غير عاقل هم الظالمون حقاً ، أما الذين يقفون منها موقفاً يتسم بالتعقل والتصبر فأولئك هم الفائزون بالنجاح والسعادة!

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ إِن فِى صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِ ۚ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿٥٦﴾ ﴾

سُلْطَانٍ :حجة وبرهان .

مَا هُم بِبَالِغِيهِ : ببالغي مقتضى الكبر والتعاظم .

إن الحق واضح ومبرهن عليه ؛ لدرجة لا يصعب معها أن يفهمه الإنسان كائناً من كان ، ولكن الحق إذْ يظهر فإنما يظهر عن طريق " إنسان " ، ومن ثم يغدو الاعتراف بالحق عملياً مرادفاً بحامل الحق ، وهذا هو السر في أنه لا يكاد يستعد للاعتراف بالحق أناس تنطوي صدورهم على نفسية الاستكبار ، حيث إنهم يخافون أنهم سوف لا يلبثون أن يفقدوا كبرياءهم وتفوقهم على حامل الحق حين يعترفون بالحق ، وبسبب نفسيتهم تلك ينبري هؤلاء لمعارضته ، بيد أن الله – جل وعلا – قدّر لدنياه ألا ينجح في جنباتها أمثال هؤلاء أبداً !

﴿ لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَلَا ٱلْمُسِىٓءُ ۚ قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾

إن عظمة هذا الكون تنطق بعظمة خالقه ، وهذه العظمة هائلة لدرجة أن إعادة خلق الإنسان مرة أخرى أمر هين ويسير جداً بالقياس إليها،وهكذا فإن خلق الكون يبرهن على إمكان خلق الإنسان الثاني .

وإذا أَجَلْنا أبصارنا في المجتمع الإنساني،فإن قيام عالم الآخرة يبدو لنا ضرورة

أخلاقية لابد منها ، ففي المجتمع أناس يقيمون الدليل على تمتعهم ببصيرة نفاذة إلى الحقيقة ، وآخرون يقفون من الحقيقة موقف الصم العمي، ونجد في المجتمع أيضاً أفراداً لا يزالون متمسكين بالعدل على كل حالٍ من الأحوال ، كما نجد فيه آخرين يحيدون عن جادة العدل، ويعاملون الناس معاملةً جائرة ظالمةً ، وإن حس الإنسان الخلقي ليقرر بأنه لا ينبغي أن ينتهي هذان الصنفان من البشر إلى مصير واحد مماثل ! ولو أننا أمعنا النظر في هذه الأمور لاتضح لنا أن ظهور الآخرة ضروري من وجهة النظر الأخلاقية !

﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦١﴾ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٦٢﴾ كَذَٰلِكَ يُؤْفَكُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٦٣﴾ ﴾

دَاخِرِينَ : صاغرين أذلاء .

فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ : فكيف تصرفون عن توحيده ؟

يُؤْفَكُ : يصرف عن التوحيد الحق .

إن تعاقب الليل والنهار على وجه الأرض بانتظام ، وما إلى ذلك من الظواهر الحيوية الأخرى من هذا القبيل ، لأكبر من أن يقدر على إيجادها إنسان أو كل الخلائق مجتمعة . وهذه قرينة واضحة تدلنا على أن الله الذي قام بالخلق والإيجاد ، هو وحده يستحق أن يُتخذ إلهاً يُعبد ، فينبغي للمرء ألا يخضع إلا له ، ولا يعلق آماله إلا عليه ، على أن المرء لا يتمكن من إقامة صلة الدعاء والعبادة الحقيقية بخالق الكون ، والسبب

في ذلك أنه قد لا يكون متعلقاً بشيء دون الخالق ، حيث يتعلق بعضهم بأصنام حية أو ميتة ، وهذا ما يقال له الشرك ، بينما يكون بعضهم الآخر متعلقاً بذاته هو ، وذلك ما يسمى " الكبر " ومن حين لآخر يبرز الله – سبحانه وتعالى – أدلة وبراهين تنقض هذا الخداع والتزييف من الأساس ، ولكن الإنسان لا يلبث أن يعرض عنها استناداً على بعض التبريرات الكاذبة .

وكل سلوك من هذا النوع استهانة بخالق الكون وعدم تقدير له ، والذين يستهينون بخالق الكون ، ولا يقدرونه حق تقديره ، لن يجدوا لأنفسهم مكاناً أو ملجأ إلا في نار جهنم !

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٤﴾ هُوَ ٱلْحَىُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۗ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٥﴾ ﴾

الأَرْضَ قَرَاراً: مستقرا تعيشون فيه .

وَالسَّمَاءَ بِنَاءً : سقفاً مرفوعاً كالقبة فوقكم .

فَتَبَارَكَ الله : تعالى أو تمجد أو كثر خيره .

إنه لم يكن ممكناً بالنسبة إلى مخلوق كالإنسان أن يقوم ببناء التمدن والحضارة على وجه الأرض لولا ما أودع فيها من أسباب وإمكانيات تفوق الحصر ، وهكذا فإن هناك تدابير محكمة لا تحصى قد اتخذت في الفضاء العلوي فوق الأرض إن حدث فيها أدنى خللٍ لفسد نظام الحياة الإنسانية بالمرة ، ثم إن الإنسان قد تم تكوينه وتشكيله على طراز رفيعٍ جعله - من الناحيتين : العقلية والجسمانية – المخلوق الأسمى في هذا الكون ...، إذن فهل من أحدٍ – غير الخالق – يستحق أن يتوجه إليه الإنسان بالعبادة

والتعظيم ! كلا ... كلا !! ودعاء الله مع إخلاص الدين له وحده معناه أن تكون عواطفنا الدينية كلها موجهة نحو الله سبحانه وتعالى !

﴿ ۞ قُلْ إِنِّى نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَمَّا جَآءَنِىَ ٱلْبَيِّنَٰتُ مِن رَّبِّى وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٦﴾ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا۟ شُيُوخًا ۚ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ ۖ وَلِتَبْلُغُوٓا۟ أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٦٨﴾ ﴾

أَنْ أُسْلِمَ : أن أنقاد أو أخلص ديني .

لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ : كمال عقلكم وقوتكم .

قَضَى أَمْراً : أراد إيجاد أمر .

تناولت هذه الآيات بعض وقائع الطبيعة ، ثم عقب عليها بقوله ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ مما يعني أن هناك دروساً معنويةً تكمن في هذه الوقائع المادية من عالم الطبيعة، والمطلوب من الإنسان أن يصل إلى تلك الدروس الكامنة عن طريق التأمل والتفكير .

ووقائع الطبيعة التي ذُكرت هنا تتلخص في : تحوّل المادة الهامدة التي لا حياة فيها إلى وجود ذي حياة ، وتخلّق ونسوئه التدريجي ، وبلوغ الإنسان سن الشباب ثم الرشد ثم تعرضه للهرم والشيخوخة .. وأخيراً استحالة الإنسان الحي مرة أخرى إلى وجود ميت عن عمر يقصر حيناً، ويطول حيناً آخر ، وهذه الوقائع تعرفنا بمختلف صفات الخالق جلَّ وعلا، فمنها نعلم أن موجد هذه الكون هو إله قادر وحكيم وهو عزيز وغالب لا يقهر ... إلخ ، وإنه لو اعتبر المرء بهذه الوقائع حق الاعتبار لصرخ عقله

قائلاً بأن الله الواحد الأحد هو وحده حقيق بأن نعبده ونعدّه مطلبنا الأسمى والأخير .

وإن خريطة العالم هذه تبطل بلسان الحال ، جميع المعبودات التي تكون قد اتخذت من دون الله الواحد الأحد !

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ ﴿٦٩﴾ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِٱلْكِتَٰبِ وَبِمَآ أَرْسَلْنَا بِهِۦ رُسُلَنَا ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٧٠﴾ إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَاقِهِمْ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسْحَبُونَ ﴿٧١﴾ فِى ٱلْحَمِيمِ ثُمَّ فِى ٱلنَّارِ يُسْجَرُونَ ﴿٧٢﴾ ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٧٣﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالُوا۟ ضَلُّوا۟ عَنَّا بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُوا۟ مِن قَبْلُ شَيْـًٔا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾ ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ ﴿٧٥﴾ ٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٦﴾ ﴾

أَنَّى يُصْرَفُونَ : كيف يصرفون عن الآيات مع صدقها ووضوحها؟

الأَغْلالُ : القيود تجمع الأيدي إلى الأعناق .

الحَمِيمِ : الماء البالغ نهاية الحرارة.

يُسْجَرُونَ : توقد أو تملأ بهم .

تَفْرَحُونَ : تبطرون وتأشرون .

تَمْرَحُونَ : تتوسعون في الفرح والبطر.

مَثْوَى المُتَكَبِّرِينَ : مأواهم ومقامهم .

من هم الذين كانوا يفرحون ويمرحون في الأرض بغير الحق ؟ إنهم كانوا كبار عصرهم فبسبب النصيب أتيح لهم من متاع الدنيا ومظاهر كبريائها ، لم يلبثوا أن أصيبوا

بالغرور والاعتزاز والخيلاء ، وقد جعلهم ما أحرزوه من النجاح المادي يزعمون أنهم أناس محظوظون ، على حين أنهم لم يكونوا في حقيقة الأمر إلا أناساً محرومين تماماً .

وكبار العصر هؤلاء يكونون أول من ينكر الحق ، ثم لا تلبث الجماهير بدورها أن تقف من الحق ، اقتداءً بهم، موقف الجحود والإنكار ، وقد عرضت هذه الآيات مشهد العالم الآتي ، حيث سيكون هؤلاء قد ألقي بهم في نار جهنم جزاء علوهم واستكبارهم، فإن كبرياءهم الكاذبة لن تنتهي بهم آخر الأمر إلى شيء سوى الهوان الأبدي الذي لن يجدوا إلى الخلاص منه سبيلاً !

﴿ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٧٧﴾ ﴾

إن هذا وعد من الله بأنه سينصر الدعاة إلى الحق ويقهر القوى المعادية له ، غير أن هذا الوعد إنما يتحقق بعد الصبر ، فالداعي يتعين عليه أن يصبر على كل أذى وعنت يلقاه من جانب المدعو ، إلى أن يحين وقت ظهور وعد الله بمقتضى سنته الأزلية ، ومع أن معارضي الحق يلقون عقابهم الحقيقي في الآخرة ، إلا أنهم ربما يعرضون لبوادره في العالم الراهن كذلك، وإن لم يكن من الضروري اللازم أن يفعل بهم ذلك دائما !

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ ۗ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِىَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ فَإِذَا جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ قُضِىَ بِٱلْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾

إن قصص الأنبياء وأحوال المرسلين لم تُذكر في القرآن الكريم على وجه التاريخ ، وإنما على وجه التذكير ، ولذلك فإن القرآن لا يتناول من أحوال الرسل إلا القدر الذي كان يلزم عند الله – سبحانه وتعالى – لأجل الذكر والنصيحة .

وإن مهمة الرسول الأساسية إنما تكمن في قيامه بإبلاغ رسالة الله إلى الناس مراعياً كل آدابها ومقتضياتها الضرورية ، وأما ما يتعلق بإظهار المعجزات والخوارق ، فإن ذلك بيد الله ، يظهرها تارة ، ولا يظهرها تارة أخرى بحسب حكمته ومشيئته التي لا يعلمها إلا هو .

وقد تم إظهار المعجزات (الحسية) في الأغلب لأمم كان الله قد قرر إهلاكها نظراً لتماديها في الطغيان ، ومن ثم أجريت على يد أنبيائها صنوف المعجزات وخوارق العادات إعذاراً لها ولإقامة الحجة عليها .

وأما أمة رسول آخر الزمان – صلى الله عليه وسلم – فقد كان المفروض أن كثرتها الكاثرة ستدخل في حظيرة الإيمان عاجلاً أو آجلاً ، حيث إنهم كانوا أناساً يمتلكون هذه الكفاية الكامنة التي أهّلتهم ليكونوا أول جماعة في تاريخ البشرية اعترفت بالحق على أساس الدليل وحده ، وبالتالي سلمت نفسها إليه وتفانت في سبيل خدمته عن طواعية وإرادة حرة .

ومن هنا لم تُعرض عليهم الخوارق والمعجزات (الحسية) رغم اقتراحهم إياها بين الحين والحين ، باعتباره اقتراحاً صادراً عن جهل وحماقة وتعصبٍ !

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَنْعَـٰمَ لِتَرْكَبُوا۟ مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَـٰفِعُ وَلِتَبْلُغُوا۟ عَلَيْهَا حَاجَةً فِى صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٨٠﴾ وَيُرِيكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ فَأَىَّ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ تُنكِرُونَ ﴿٨١﴾ ﴾

حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ : أمراً ذا بالٍ تهتمون به .

إن الإنسان محتاج إلى أشياء كثيرة للإبقاء على حياته وتمدنه ، كالغذاء والمراكب ، ومختلف أنواع الحرف والصناعات ، وأدوات نقل الأمتعة من مكان إلى آخر ، وكل

هذه الأشياء تتوافر في عالمنا الراهن بكميات هائلة ، وقد جعل الله أشياء الدنيا على نحو تبقى معه دوماً مسخرة خاضعةً لإرادة الإنسان ، بحيث يستخدمها في تحقيق شتى أغراضه ومآربه كيف يشاء .

وكل هذه الأشياء بمثابة آيات الله ، تعلن عن الحقائق الغيبية بلسان مادي وهذا الإعلان، إن كان بأسلوب غير مباشر ، إلا أن الخير للإنسان أن يتفهم الكلام الموجه إليه بالأسلوب غير المباشر ، لأن الله – سبحانه وتعالى – إذا تكلم بالأسلوب المباشر فسيكون ذلك إعلاناً عن انتهاء مهلة العمل وليس بدء فرص العمل !

﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓا۟ أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ فَرِحُوا۟ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٨٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَـٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا ۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ ۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾ ﴾

فَمَا أَغْنَى عَنْهُم : فما دفع عنهم وما نفعهم .

مِّنَ العِلْمِ : بأمور الدنيا مستهزئين بالدين.

وَحَاقَ بِهِم : أحاط . أو نزل بهم .

رَأَوْا بَأْسَنَا : عاينوا شدة عذابنا في الدنيا .

خَلَتْ : مضت .

العلم نوعان : علم يمكن صاحبه من إحرازه الرقي والتقدم الدنيوي ، وعلم

يهدي صاحبه إلى طريق النجاح الأخروي ، والذين يتمتعون بعلم الدنيا ، تظهر نتائجه الباهرة على الفور في صورة التطورات والإنجازات المادية الملموسة ، وعلى النقيض من ذلك وبشكل محسوس أصحاب العلم الأخروى !!

وهذا الفارق ربما يولد في نفوس المتضلعين في علوم الدنيا مركب الاستعلاء ، ومن هنا لما بعث أنبياء الله في أمم كهذه قابلتهم بالاحتقار والازدراء ، ناظرةً إلى نفسها على أنها أعلى وأعظم منهم شأناً ، حتى إنها أخذت تسخر منهم وتستهزئ بما جاءوا به ، بيد أن الله – عز وجل – أهلك تلك الأمم ، الواحدة تلو الأخرى ، رغم كل قواها الجبارة ومظاهر تقدمها العلمي والحضاري المدهش ، وإنما توجد آثارها التاريخية ومعالم حضارتها البائدة اليوم إما بشكل أطلال وخرائب متهدمة ، أو مطمورة تحت الرغام ... وهكذا فقد أقام الله للناس كافة مثالاً تاريخياً معبراً يقرر أن سر النجاح الدائم الباقي يكمن في علم الآخرة وليس في علم الدنيا!

وقد كذبت هذه الأمم برسالة أنبيائها ...، ومع كون أولئك الأنبياء تتوافر لديهم قوة الدليل والبرهان ، إلا أنها لم تكد ترضى بالخضوع أمام قوة الدليل ، إلى أن نبّأهم الله تعالى بأمر الحق في نهاية المطاف بلغة العذاب ...، وعندها لم يلبث هؤلاء أن بادروا بالإقرار والتسليم في ضراعة وخضوع غير أن هذا الإقرار لم يغن عنهم شيئا لك، لأن الإقرار المطلوب هو الذي يتم على أساس الدليل ، ولا قيمة لإقرار يلجأ إليه بعد رؤية العذاب الإلهي رأي العين !